الفصل الثالث

المستقبلات البديلة للنظام العالمى

أمام تحدى صياغة العالم الجديد «المستقبلى» تبرز ثلاثة مشكلات أساسية تواجه الإنسانية كلها ، وعلى هذه الإنسانية فى كليتها التعامل معها وهو تعامل يتأرجح بين مدرستين فى العلاقات الدولية . أى أننا أمام ثلاث مشكلات / أزمات أساسية ، ومنهجين فى التعامل معها ومن حصيلة تفاعل هذين المنهجين مع الأزمات الثلاث يمكن تصور مستقبلات ثلاث للنظام العالمى تتراوح بين الأفضل والأسوأ .

والأزمات الثلاث التى يواجهها العالم حسب بيير كالام ، وأندريه تالمان[٢٥] متشابكة ومتصلة ببعضها البعض وهى أزمة العلاقات بين البشر وهى شديدة الوضوح حتى فى الدول الغنية مع التصاعد الحقيقى للفوارق الاجتماعية ، وأزمة العلاقات بين المجتمعات ، وأزمة العلاقات بين البشر وبين البيئة التى يعيشون فيها .

وأما المنهجان اللذان يمكن للعالم التعامل بهما مع هذه الأزمات . فهما حسب تيلور وفلنت ، المتمثلان فى المدرستين التقليديتين فى دراسة العلاقات الدولية : المدرسة الواقعية ، والمدرسة المثالية . وقد سادت الواقعية لردح طويل من الزمن وهى تستند إلى حجج كلاسيكية تدور حول فن السياسة وطرائق المنافسة على مستوى الدول . وهذا ما نجده عند مكيافيللى فى القرن السادس عشر ، وأيضاً عنده كلاوزفتس فى القرن التاسع عشر . وقد أكدت هذه الكتابات على مشاعر الخوف وعدم الأمان التى كانت تساور الدول ومن ثم دافعت عن سياسات زيادة الانفاق العسكرى وهو ما يوصل إلى سياسة القوة ، أى أن تقوم الدولة القوية بإملاء إرادتها على الدول الأضعف . ومن ثم فإن الحرب أو التلويح بالحرب علي الأقل كان يمثل نقطة محورية فى توصيفات أنصار السياسة الواقعية وتفسيراتهم للعلاقات الدولية ولقد كان ذلك هو السبب فى إدانه أنصار الفكر المثالى لهؤلاء الواقعيين بوصفهم أناس لا أخلاقيين .

ولقد فسر الكثيرون الحرب العالمية الأولى على أنها النتاج الطبيعى لأفكار ساسة الواقعية فى تناولهم للقضايا الدولية . كما فسرت الواقعية على أنها تعكس نهج العالم القديم فى إدارة دفة الأمور الدولية . أما المثالية فقد دخلت إلى الساحة الدولية مع دخول الولايات المتحدة إلى حلبة الحرب كمنهاج جديد للتحكم فى زمام القضايا الدولية. وبادر الرئيس الأمريكى ولسون إلى تبرير تورط الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الأولى بناءً على المبادئ المجردة المتعلقة بالإمساك بزمام الأمور على الصعيد الدولى . ومن هذا يتضح أنه فى حين تركت المدرسة الواقعية مسئولية تسيير الأمور

الدولية فى أيدى القوى العظمى ، فإن المثالية الجديدة طالبته بوضع أمور هذا العالم تحت مظلة الإرادة الجماعية لكل دول العالم . ومن هذا المفهوم المثالى ولدت عصبة الأمم وكان الأمل الذى يحدوها أن تعمل على الحيلولة دون وقوع كارثة مروعة أخرى مثل الحرب الأولى . ومن ذلك نخرج بخلاصة مهمة وهى أن الواقعية تسعى فى الأساس إلى الحفاظ على مصالح القوى العظمى ، أما المثالية فإنها تقوم على مبادئ ليبرالية يسعى أصحابها إلى إقامة العلاقات الدولية على أسس «دستورية» صلبة.

ونقطة الإنطلاق هنا لعمل هذين المدرستين فى مواجهة الأزمات الثلاث الأساسية هى حقيقة «النزعة الاستقطابية» التى تميز اقتصاد المعرفة فتزيد الثرى ثراءً، والفقير فقراً ، وبرغم أن التفاوت «الطبقى» بين البشر داخل مجتمعاتهم ، والدولى بين المجتمعات وبعضها البعض ظل حقيقة قائمة فى النظام العالمى الحدائى ، فإن الجديد هنا يتعلق أولاً بالقدرة العالية على إفراز هذا التفاوت وإعادة إنتاجه على نحو مستمر فى متوالية هندسية تدفع بمجرد التفاوت ولو الكبير إلى مرحلة الاستقطاب فى ظل اقتصاد المعرفة وللأسباب التى عرضنا لها سلفاً ، ويتعلق ثانياً بطبيعة البنية القانونية والسياسية التنظيمية للعولمة من حيث هى نازحة إلى التقنين المستمر والمتنامى لفكرتى الاقتصاد المفتوح : وهو ما يزيل الحمائية فى كل أشكالها ويعرض الاقتصادات الأضعف لخطر الإفلاس تحت ضغط الاقتصاد الأقوى . والمجتمع المفتوح: حيث القدرة العالية على النفاذ منه وإليه فيتم التحكم فيه من ناحية ، وتسهل مراقبته – هو – للعالم من حوله ومطالعة ثراء الآخرين فى ظل فقره هو مما يزيد درجة الشعور بالحرمان ، وخاصة مع تنامى ثورة الاتصالات .

وهنا يمكن القول بأن الطبيعة الاستقطابية لإقتصاد المعرفة باعتباره الأساس / المكون الأول للنظام العالمى القائم ، والنزعة التقنينية لهذا الاستقطاب واللا تكافؤ على صعيد «بنية العولمة» فى شكلها الراهن إنما يعملان معاً وفى تكاملية عالية على تقويض هذا النظام القائم نتيجة عدم التكافؤ الشديد وهى حقيقة يشعر بها كثيرون فى العالم الآن وهى تطرح نفسها فى نزوعات يمينية تجتاح العالم تقريباً ، وفى نزوعات هيمنة أمريكية على العالم «الولايات المتحدة هى المركز الرئيسى لبنية العولمة» ولكنها لم تصل إلى نقطة تفجرها بعد وهو أمر متوقع فى المدى القريب أو الوسيط .

وقبل هذا الانفجار أو بعده سوف تبرز أهمية التعامل معه وسوف يستلزم ذلك الإعتراف أولاً بهذه الحقيقة القائمة ، ثم البحث فى كيفية مواجهتها . غير أن أحد السيناريوهات قد يكون هو عدم الاعتراف بها أو التغطية عليها بحيث تظل النزعة الاستقطابية فى العمل على مستوى نمط الانتاج ولكن من داخل البنية التنظيمية

«القانونية والسياسية» القائمة كما هو جارٍ منذ نهاية الحرب الباردة حيث سقط الاتحاد السوفيتى بفعل هذه النزعة الاستقطابية ، وحتى أحداث سبتمبر على الأقل والتى جسدت هى نفسها أو ما بعدها سفور الاتجاهات اليمينية . إن ذلك السيناريو سوف يقود فى الواقع إلى الفاشية الأمريكية ولكن تحت غطاء «العولمة» ذات الخطاب الفكرى الكونى والذى يتحول هنا إلى الوظيفة التبريرية فقط لشرعية ماهو قائم دون أى قدرة على التبشير بشئ جديد ، وهو ما يعنى فى اعتقادنا نهاية العولمة كبنية / مرحلة فى النظام القائم موضوعياً حتى وإن استمرت رمزياً ، وهنا سوف يعيش النظام العالمى أزمات كثيرة لن تكون أحداث سبتمبر أخرها . هذه الأزمات الكثيرة ، أو المتفجرة هى النتاج المنطقى لحالة التلفيق القائمة بين مكونات النظام العالمى على الأصعدة الثلاث ، والتى تصوغ بدورها السيناريو الأول «التلفيقى» لمستقبل النظام بين العولمة / الفاشية الأمريكية فى مزيج متداخل يكشف عن نفسه بأقدار متفاوتة من الوضوح يمكن ملاحظتها من خلال رصد قدرته النسبية على الاستقلال عن الخطاب الكونى للشرعية باتجاه خطاب جديد نسميه هنا «نزعة التمركز الأمريكى» .

والسيناريو الثانى يقوم على أساس الإعتراف بالحقيقة الاستقطابية فى نمط الانتاج ، وتقنينها على مستوى البنية التنظيمية بل والعمل على توظيفها إتجاهاً نحو منهج «تفجير إدارة الاستقطاب» على نحو صريح من قبل مراكز النظام القائم أى «الغرب الواسع» حيث يدفعه هذا الاعتراف بالحقيقة ورغبته فى توظيفها بعقل نفعى إلى البحث عن خطاب جديد للشرعية قد يكون هو «صدام الحضارات» مثلاً كخطاب تكتيلى للغرب ، وتبريرى له فى إدارة تناقضه مع الآخرين عبر المدرسة الواقعية .

أما السيناريو الثالث فهو الأكثر تفاؤلية ويتأسس على الاعتراف بالحقيقة الاستقطابية ، والرغبة فى مواجهتها لصالح نظام عالمى أكثر استقراراً ، ومستقبل إنسانى أكثر ازدهاراً . وهو ما يتطلب إعمال المنهج الأخلاقى النازع لترشيد درجة الاستقطاب القائمة فى نمط الانتاج ، من خلال أدوات البنية التنظيمية القانونية والسياسية للنظام القائم بإلهام خطاب فكرى مثالى وتبشيرى يستلهم النزعات الإنسانية فى الفكر العالمى . وهو ما نسميه «التكاملية الإنسانية» . وفى الصفحات التالية سوف نتوقف بإيجاز عند كل من المستقبلات الثلاث للنظام العالمى .